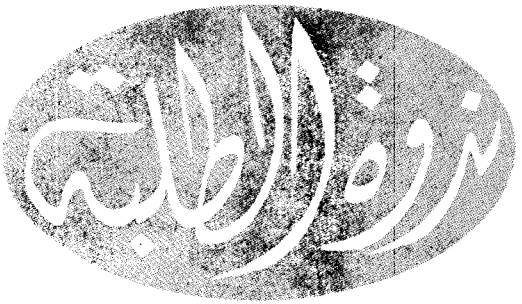

لمحات تاريخيّة من حياة ابن تيمية

بقلم : صالح بن سعيد بن هلابى

هذه لمحات خاطفة ونظرات عابرة عن حياة امام جليل وعبقرى حكيم أقام الدنيا وأقعدها فى عهده بالعلم والفكر والجهاد طول حياته ، وأحيا تراثا عظيما للامة الاسلامية كاد أن يذهب وينطمس بين الفلسفة وحذلقة علم الكلام وبين الشعوذة والفرق الباطنية القتالة .

فى هذه اللمحات العابرة نحاول أن نضع أيدينا على مفتاح هذه الشخصية العظيمة وكنه حقيقتها وبعض خصائصها وجهادها العظيم المتواصل ضد أعداء الاسلام بكل اصنافهم وأشكالهم ..

نشأته وطلبه للعلم :

ولد ابن تيمية بحران من اعمال أورفه فى تركيا سنة ٦٦١ هـ وهاجر ابواه به وباخوته الى دمشق تخلصا وفرارا من ظلم التتار وقد لاقوا فى هجرتهم متاعب ومصاعب كثيرة لولا عناية الله عز وجل ان وصلهم بالسلامة وصل ابن تيمية الى دمشق وهو طفل صغير وكان والده من كبار علماء الحنابلة فسارع الى حفظ القرآن الكريم وطلب العلوم الشرعية على اختلاف أنواعها من كبار الشيوخ والمحدثين الذين أدهشهم بقوة ذهنه وفرط ذكائه **ولم يكد يبلغ من العمر بضعة عشر عاما حتى أتقن معظم فنون الشريعة وحاز قصب السبق فيها ، قرأ مسند الامام أحمد بن حنبل مرات عديدة وسمع الكتب الستة الكبار ومن مسموعاته معجم الطبرانى الكبير وأفتى وله من العمر بضعة عشر عاما**

Made With Pdf Office

ولم يكتف بالفنون الاسلامية بل تعدى الى غيرها من الفنون التى كانت سائدة فى ذلك العصر فدرس الفلسفة وعلم الكلام وتعمق فيها ورد على أصحابها والديانات المسيحية واليهودية وكتب فيها كتبا عظيمة ومن أروع كتبه فى المسيحية كتابه العظيم « الجواب الصحيح على من بدل دين المسيح» فى اربع مجلدات الذى نقض فيه عقائد المسيحية من اساسها ، هذه العقلية الجبارة التى أوتيت هذا الذكاء الخارق كان وراءها سر عظيم وهى مراقبة الله عز وجل فى السر والعلانية والوقوف عند حدوده مع الجد والنشاط والرغبة المخلصة فى طلب العلم واظهاره للامة على حقيقته .

وهذا ما يعبر عنه ابن تيمية عن نفسه بقوله : « انه ليقف خاطرى فى المسألة والشىء أو الحالة التى تشكل على فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل اشكال ما أشكل وقد أكون اذ ذاك فى السوق أو المسجد أو المدرسة لا يمنعنى ذلك من الذكر والاستغفار الى أن أنال مطلوبى » .

وهكذا أمضى ابن تيمية حياته فى طلبه للعلم حتى أصبح من كبار العلماء يشار اليه بالبنان .

ثناء العلماء عليه :

كان موضع الاعجاب والاجلال من المنصفين وبمن اجتمع بهم وشهد له كبار علماء عصره بالعلم والفضل والجهاد ، قال المحدث ابن دقيق العيد حين رأه واجتمع به وقد كان حجة عصره فى الحديث قال « رأيت رجلا جميع العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد » وقال الحافظ ابو الحجاج يوسف المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ « ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أتبع لهما منه » .

وقال الحافظ كمال الدين الزملكانى قاضى قضاة الشافعية المتوفى بالقاهرة سنة ٧٢٧ هـ « كان ابن تيمية اذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحدا لا يعرفه مثله ، وكان من سائر الطوائف اذا جلسوا معه استفادوا فى مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ولا تكلم فى علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها الا فاق فيه أهله والمنسوبين اليه وكانت له اليد الطولى فى حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد » الى أن قال فيه :

ماذا يقول الواصفون له
وصفاته جلت عن الحصر

هو حجة الله قاهرة
هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية فى الخلق ظاهرة
أنوارها أربت على الفجر (١)

---

(١) العقود الدرية من مناقب ابن تيمية لتحافظ ابى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى المتوفى سنة ٧٤٤ هـ

Made With Pdf Office

وقال فيه شيخ النحاة ابو حيان حين اجتمع به :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا
داع الى الله فردا ما له وزر

على محياه من سيما الالى صحبوا
خير البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهرنا جسرا
بحر تقاذف من امواجه الدرر

قام ابن تيمية في نصر شرعتنا
مقام سيد تيم اذ عصت مضر

وأظهر الحق اذ أتاره درست
وأخمد الشر اذ طارت له شرر

كم ذا تحدث عن حبر يجيء فها
أنت الامام الذى قد كان ينتظر

وقد أثنى عليه معظم أهل عصره أعظم الثناء والذين ظهر لهم الحق على يديه وحسبنا ما ذكرنا ولولا ضيق المجال لطال بنا الكلام ، ومن أراد التوسع والوقوف على ترجمة هذا الامام الجليل والمجدد العظيم فعليه أن يقف على بعض من ترجم له من معاصريه ، مثل ابن الوردى في تاريخه وابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية » وابن الالوسى في « جلاء العينين » وابن رجب في طبقاته ومحمد بن شاكر الكتبى في « فوات الوفيات » وابن العماد الحنبلى في « شذرات الذهب » والحافظ الذهبى في كتبه العديدة التى أفاض فيها عن حياته وجهاده والذى وصف مصنفاته بأنها بلغت الى خمسمائة مجلد .

دراسات عن ابن تيمية :

وفى القرن الاخير ظهرت دراسات مستقلة وكتب مستفيضة عن هذا الامام الجليل بعضها تتناول نواحى معينة من حياته وبعضها تلم بجميع حياته وسيرته وآرائه الفقهية وفتاويه وممن كتب على سبيل المثال لا الحصر:

العلامة الشيخ رشيد رضا ،الشيخ طاهر الجزائرى ، الشيخ محمد منير الدمشقى الشيخ محمد حامد الفقى ، الشيخ محب الدين الخطيب، الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، الشيخ محمد لطيف ، الشيخ عبد الصمد شرف الدين ، الشيخ سليمان الصنيع ، الشيخ محمد ابو زهرة ، الشيخ عبد العزيز الراعى ، الشيخ محمد خليل هراس ، الشيخ محمد بهجة البيطار ، الشيخ عبد الملك بن ابراهيم ، الاستاذ الدكتور على سامى النشار ، الدكتور محمد يوسف موسى ، والاستاذ محمود مهدى الاستانبولى .

وحتى المستشرقين قد اعتنوا به عناية كبيرة وفى مقدمتهم المستشرق الفرنسى « هنرى لاوست » الذى خصه بعناية كبيرة والذى جعل آراءه السياسية والاجتماعية موضوعا لاحدى الرسالتين اللتين حصل بهما على الدكتوراه من باريس كما ترجم بعض مؤلفاته الى اللغة الفرنسية مع دراسة وتقديم لها ، كما تحصل على الدكتوراه من جامعة كمبردج بانجلترا الدكتور محمد رشاد سالم برسالته التى كان عنوانها « موافقة العقل للنقل عند ابن تيمية » وقد سافر الدكتور رشاد سالم الى هولندا وفرنسا وألمانيا وانجلترا والهند وأطلع على ما أمكنه الاطلاع عليه من مخطوطات ابن تيمية هناك وصور كثيرا من هذه

Made With Pdf Office

المخطوطات ولقي عناءا كبيرا في رحلاته وبحوثه هذه كما مكث مدة طويلة في دمشق نقل كثيرا من مخطوطات ابن تيمية وهو عازم على نشر تراث ابن تيمية ان مد الله في أجله وأعانه على مهمته أن يقف جزءا كبيرا من جهده على نشر هذه المؤلفات بعد تحقيقها واخراجها في أحسن صورة وتكون مقسمة على ثلاثة أقسام – حسب تقسيمه – ٠

القسم لاول : مؤلفات ابن تيمية وهو المخصص لنشر كل ما ألفه وينقسم الى فرعين الاول لنشر الكتب الكبيرة ، والثاني لنشر الرسائل والقواعد المختلفة ٠

القسم الثاني : تراجم ابن تيمية ويحاول في هذا القسم نشر كل ما كتب عن سيرة شيخ الاسلام ٠

القسم الثالث : دراسات عن ابن تيمية وفي هذا القسم يتناول آراه المختلفة بالدراسة والتحليل ويهتم بوجه خاص بما يتعلق بالعقيدة والرد على المتكلمين والفلاسفة والفرق المختلفة والصوفية على اختلافها (١) فنسأله تعالى أن يعين الدكتور على هذا المشروع العظيم ويبارك في جهوده حتى يخرجه في أحسن صورة، ولا يفوتني هنا ان الحكومة السعودية وفقها الله طبعت مؤخرا فتاوى ابن تيمية في ثلاثين مجلدا بمطابع الرياض وهذا مشروع عظيم لا يستهان به ٠

---

(١) انظر مقدمة كتاب منهاج السنة لابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ص١٠

صفات المؤمن

هيهات هيهات أهلك الناس الامانى ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وايمان بلا يقين ، مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا ، وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ، دخل القوم والله ثم خرجوا وعرفوا ثم أنكروا انما دين احدكم لعقة على لسانه ، اذا سئل أمؤمن انت قال نعم كذب ومالك يوم الدين ، ان من أخلاق المؤمن قوة في دين وحزما في لين وايمانا في يقين وعلما في حلم وحلما بعلم وكيسا في رفق وتجملا في فاقة وقصدا في غنى وشفقة في نفقة ورحمة لمجهود وعطاء في الحقوق وانصافا في استقامة ٠ قانع بالرزق حامد على الرخاء صابر على البلاء

الحسن البصرى

Made With Pdf Office